حركة المنافقين في مدينة يثرب
وموقف الرسول (ص) منها

رياض هاشم هادي
مدرس مساعد / مركز الدراسات التركية
جامعة الموصل

ماكادت الدولة التي انشأها الرسول (ص) في مدينة يثرب تقوم ، حتى بدا بينها وبين خصومها ـ الذين وجدوا في قيامها خطراً على وجودهم صراع عنيف استعمل فيه اللسان كما استخدم فيه السيف ، وقامت فيه الدبلوماسية بدورها الى جانب القوة العسكرية وظهرت فيه من جديد قوة الاحلاف القديمة بترابطها ومصالحها المشتركة ، كما ظهرت آثار الخصومة القديمة فيه بارزة واضحة ولعب تشابك المصالح او تعارضها دوراً هاماً في توجيه ذلك الصراع وتقرير مصيره .

ولقد ظهر لدولة المدينة خصوم في داخلها وفي خارجها ، ولم يمض وقت كبير حتى اتفقت مصالح الخصوم في الداخل والخارج وتضافرت جهودهم على سحق قوة المدينة والقضاء عليها وخنق الدين الذي قامت الدولة على اساسه وجرت محاولات عديدة للقضاء على الرسول (ص) محاولين بذلك اعادة الاوضاع الى ماكانت عليه في السابق .

ولم يكن خطر الداخليين بأقل شأناً من خطر الخصوم الخارجيين ، بل انه كان احياناً اشد خطراً ، لانه سوف يؤدي الى تفكك جبهتها الداخلية

ويجعلها عرضة للسقوط امام اي هجوم خارجي . وقد تمثل هذا الخطر في طائفتين من سكان يثرب اليهود والمنافقين من الاوس والخزرج .

وعليه سنحاول في هذا البحث التعرف على طبيعة هذه الحركة وموقف الرسول (ص) منها ولماذا لم يتخذ اي موقف حاسم منها .

مفهوم النفاق : المنافق هو الذي يستر كفره ويظهر ايمانه (١) وهم الذين كانو يظهرون غير مايسرون حتى اطلع الله نبيه عليه السلام على اخبارهم واسرارهم (٢) ويعرّف ابن منظور النفاق بمايلي : ان النفاق اسم مشتق من الذي يصنعه اليربوع لنفقه تحت الارض كي يهرب عن طريقه وقت الحاجة(٣).

ويرى آخرون بان كلمة منافق مصطلح مشتق من — نفقه — ذلك ان المسلمين واليهود كانوا قد تعاهدوا بعد هجرة الرسول (ص) الى المدينة بموجب بنود — الصحيفة — ان يؤدوا له نفقه تعينه على القيام بواجباته والدفاع عن المدينة ضد اعدائها الا ان طائفة من اهل المدينة كانت لاتدفع هذه النفقة الا عن كره وبتأثير اغلبية افراد الامة عليهم لذا سموا — منافقين — بسبب مماطلتهم في اداء ماعليهم من نفقه (٤) .

ان هذا المصطلح لو كان مشتقاً من كلمة — نفقه — لكان من الواجب تسمية من يدفعون النفقه بحماس وعن طيب خاطر — منفقين — واما الذين يتقاعسون عن دفعها فلا يوجد اي وجه من وجوه اللغة يجيز لنا تسميتهم بهذا

---

(١) الزبيدي : محمد مرتضى : تاج العروس ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٦ ، جـ٧ ص٧٩.

(٢) القيرواني : زهرة الآداب وثمر الالباب ، ط٤ ، دار الجيل ، بيروت ، ١٩٧٢م جـ٢ ص٣٩٩ .

(٣) إبن منظور : محمد بن مكرم : لسان العرب، د/ط ، دار صادر ، بيروت ، ١٣٧٥هـ ١٩٥٦م ، جـ١ ، ص٣٥٩ .

(4) Serjeaut; R.B: The cantitution of Madina Islamic J. Quarterty Vol, 8, P. 14.

الاسم — منافقين — لذا فليس بالامكان قبول مثل هذه الفرضية (١) . وهناك من يقول بان النفاق قسمان خاص وعام : —

فالخاص هو النفاق الذي يحاول صاحبه لقاء كل احد بما يرضيه عنه ويجيبه اليه وهو يظهر بذلك عكس مايبطن ويسمى — بالمنافق —

والعام : هو مايكون في الدين والدولة وهو خيانة للامة والملة (٢) .

ان المعنى الاسلامي لكلمة منافق هو تطور لمعناها العربي حيث ان كلمة منافق مشتقة من نافقاء اليربوع ولان المنافق كاليربوع يظهر خلاف مايبطن)(٣).

ولما كانت هذه الحركة اول ماظهرت في مدينة يثرب فلابد لنا من اعطاء فكرة عنها.وعن دورها السلبي في حركة الدعوة الاسلامية ابتداء من دخول الاسلام يثرب وحتى غزوة تبوك . وقد اقترنت هذه الحركة المناهضة للرسول(ص) والاسلام باسم احد زعماء الخزرج عبدالله بن ابي بن سلول .

ويبدو ان عبدالله بن ابي أحد زعماء الخزرج كان من اشد المعارضين للاسلام منذ البداية فان اتباعه عندما بايعوا الرسول (ص) البيعة الثانية اخفوا عنه ذلك ولما علمت قريش بما حدث في العقبة جاؤا الى منازل الاوس والخزرج جميعاً وقالوا لهم((انه بلغنا انكم قد جئتم الى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين اظهرنا وتبايعونه على حربنا ... فانبثق من هناك من مشركي قومنا يحلفون بالله ماكان هذا شر وما علمناه)) (٤).ثم انهم اتوا عبدالله بن ابي إبن سلول...وقال لهم ان هذا الامر جسيم ماكان قومي ليتفوتوا علي بمثل

---

(١) المزيد انظر الملاح هاشم يحيى : المنافقون في مدينة الرسول (مجلة الدراسات الاسلامية . العدد الخامس ، بغداد ، ١٣٩٣هـ-١٩٧٣م) ص٤٦٩ .

(٢) خلف الله محمد : محمد والقوة المضادة ،د/ط ،مكتبة انجلو المصرية ،القاهرة ١٩٧٣م،١٢٥٧

(٣) المغربي : عبدالقادر : الاشتقاق والتعريب ، القاهرة ، ١٩٧٧م ، ص٣٥ .

(٤) ابن هشام : ابو محمد عبدالله الحميري : سيرة النبي : تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد دار الفكر ، بيروت د/ط ، ج٢ ، ص٥٧ .

هذا . وما علمته كان)) (١)ويبدو ان المبايعين كانوا يرغبون في حضور ابن ابي تلك البيعة بصفته احد الزعماء البارزين في المدينة ويكون الامر بذلك للرسول والمبايعين اقوى .

وبعد هجرة الرسول (ص) الى مدينة يثرب وإعلان ميثاقه المعروف بالصحيفة لتنظيم العلاقات بين السكان. قبل مشركوا الاوس والخزرج هذا التحالف مع الرسول (ص) لانهم وجدوا أغلب قومهم قد قبلوا الاسلام ورحبوا بزعامة الرسول (ص) لهم . لذا فلم يكن من المناسب الخروج على ارادة قومهم ومعارضتها على الاطلاق .

الا ان هذا لايعني ابداً انه لم يكن هناك من تضررت مصالحه بقدوم الرسول (ص)الى المدينة فهناك بعض زعماء الاوس والخزرج من الذين كانوا يتطلعون الى توحيد المدينة تحت زعامتهم فلا عجب ان يندفع هؤلاء الى مخاصمة الرسول (ص) والكيد لدعوته ظاهراً او باطناً وحسب مقتضيات الظروف وكان اول من عارض دعوة الرسول (ص) في مدينة يثرب ، وقبل ان يهاجر الرسول (ص) اليها : أبا قيس بن الاسلت ، وكان شاعراً وسيداً في قومه ، فوقف بهم عن الاسلام فلم يزل على ذلك حتى غزوة الاحزاب وفشل المشركون واليهود في دخول المدينة حيث اعلنوا بعدها اسلامهم (٢).

وكان ابو عامر الراهب من الشخصيات التي لعبت دوراً بارزاً في معارضة الرسول (ص) وهو من ابرز زعماء الاوس ، وكان شريفاً مطاعاً في قومه . وكان قد ترهب في الجاهلية وليس المسموح (٣) . وقيل انا ان عامر اتى

(١) ابن هشام : نفس المكان .
(٢) ابن هشام : ج٢ ، ص٤٦ .
(٣) البلاذري : احمد بن يحيى : انساب الاشراف : تحقيق : محمد حميدالله ، د/ط دار المعارف ، مصر ، ١٩٥٩ . ج١ ، ص٢٨١ .

رسول الله (ص) حين قدم المدينة ....قال ماهذا الدين الذي جئت به ؟ فقال جئت بالحنيفية ، دين ابراهيم قال : فانا عليها . فقال له رسول الله (ص) انك لست عليها . قال بلى ... قال انك ادخلت يامحمد في الحنيفية ماليس منها (١) . وقد عادى ابو عامر الرسول (ص) عداء علنياً ، ولما وجد ان قوة الرسول (ص) في المدينة تتنامى تنامياً مستمراً وان اتباعه من الاوس والخزرج يزدادون قوة وكثرة ، ادرك ان لاقبل له بمعارضة الرسول (ص) على ارض مدينة يثرب . لذا قرر الهجرة الى مكة وتبعه قرابة خمسين من اتباعه . وقد ذكر الواقدي ان ابا عامر «قد خرج في خمسين رجلاً من ((اوس الله)) حتى قدم النبي (ص) المدينة. فاقام مع قريش وكان دعا قومه فقال لهم :ان محمداً ظاهر فاخرجوا بنا الى قوم نؤازرهم ، فخرج الى قريش يحرضها ويعلمها انها على الحق وما جاء به محمد باطل » (٢) . وبسببها نعته رسول الله (ص) بابي عامر الفاسق . وشارك ابو عامر واتباعه في معركة احد بجانب مشركي قريش وكان يقول لقريش «اني لو قدمت على قومي لم يختلف عليكم منهم اثنان» (٣) . الا ان رد الانصار وخاصة قومه له قبل المعركة لم يكن يتوقعه. فقال لهم ((يامعشر الاوس: انا ابو عامر قالوا : فلا انعم الله بك عيناً يافاسق فلما سمع ردهم عليه قال : لقد اصاب قومي من بعدي شر ثم قاتلهم قتالاً شديداً ، ثم راضخهم بالحجارة (٤) (*) .

(١) ابن هشام : ج٢ ، ص٢١٧ .
(٢) الواقدي : ابو عبدالله : محمد بن عمر بن واقد : المغازي : تحقيق : د. مارسدن جونس — د/ط عالم الكتب ، بيروت ، ١٩٦٦ ، ج١ ، ص٢٠٥—٢٠٧ .
(٣) ابن هشام : ج٣ ، ص١٢ . —
ان خروج ابي عامر الراهب من مدينة يثرب مع خمسين من اتباعه يمكن ان يعتبر هجرة معاكسة ولا سيما بعد ان وجد مشركو يثرب انه لا قبل لهم على مقاومة الدعوة الجديدة .
(٤) ابن هشام : نفس المكان .
(*) للمزيد حول الموضوع (انظر) الملاح : هاشم يحيى : المنافقون في مدينة الرسول .

ويبدو ان ابا عامر قد اصابه نوع من القنوط بعد ان ادرك حقيقة قومه منه كما ان قريشاً اهملته بعد ان ادركت ماانتهى اليه مركزه في قومه .الا انه لم ييأس وذهب الى خيبر واقام بها فترة من الوقت ، وتعاون مع يهود بني النضير بعد ان اجلاهم الرسول (ص)عن المدينة وكان من المحرضين على غزوة الاحزاب (١) .

ويبدو ان قسماً من اتباع ابي عامر قد استقروا اخيراً في المدينة وبنوا لانفسهم مسجداً عرف بمسجد ((ضرار)) من اجل ان يكونوا فيه ويجتمعون به بعيداً عن عيون المسلمين الا ممن هو على مثل رأيهم (٢) . وان بناء هذا المسجد انما جاء بناء على طلب ورغبة ابي عامر الراهب وقد ذكر الواقدي انا ابا عامر قد ارسل الى اتباعه يقول لهم ((لااقدر ان ادخل مربدكم هذا))(٣) يعني بذلك مسجد قباء المخصص لعموم المسلمين . وكان على مايبدو يخشى ان يراه المسلمون وينالوا منه مايكره ، فكان يقول لاتباعه ، نحن نبني مسجداً نتحدث فيه آمنين (٤) .

يفهم مما سبق عرضه ان ابا عامر قد استطاع ان يكسب له اعواناً في المدينة وهم من المنافقين الذين دخلوا في الاسلام ظاهرياً . ويفهم منه ايضاً ان ابا عامر قد ابدى استعداداً لان يحضر معهم في مسجدهم الذي لاينالـه فيه اذى من اصحاب محمد (ص) الا ان ابن هشام قد ذكر ان ابا عامر قد توجه الى الشام بعد فتح مكة ودخول الطائف الاسلام (٥) واخذ من هناك يراسل اتباعه المقيمين في المدينة وينسق معهم من اجل تحقيق اهدافهم . لذا

(١) الواقدي : ج٢ ، ص٤٤١ .
(٢) الواقدي : ج٣ ، ص١٠٤٩
(٣) الواقدي : نفس المكان .
(٤) الواقدي : نفس المكان .
(٥) ابن هشام : ج٢ ، ص٢١٧ .

فمن الراجح ان يكون الحوار الذي اورده الواقدي، قد تم عن طريق المراسلة بين ابي عامر المقيم بلاد الشام واتباعه الموجودين في المدينة . وربما كان هذا جزءاً من مخطط كبير يهدف الى الاستعانة بالروم عسكرياً لاحتلال المدينة والقضاء على هذه القوة الجديدة في الحجاز ، وقد ذكر ابن القيم الجوزية ان ابا عامر الراهب قد ارسل الى اتباعه يقول لهم «ابنوا مسجدكم واستجدوا مااستطعتم من قوة ومن سلاح فاني ذاهب الى قيصر الروم فاتي بجند من الروم فاخرج محمداً واصحابه (١) مما دفع الرسول (ص) الى تجهيز حملة تبوك وفي موسم الصيف الشديد الحرارة وغير الملائم للحملات العسكرية في الجزيرة العربية للحيلولة دون قيام الروم او غيرهم من التحرك عسكرياً ضد المدينة، ولاشعار هذه القوى جميعاً مدى قوة المسلمين واستعدادهم للقتال في كل الظروف .

مما سبق عرضه يمكن القول ان حركة ابي عامر الراهب كانت اول حركة معارضة واجهت الدعوة الجديدة علناً ، ولكنها بعد فترة من الزمن وعندما عجزت عن تحقيق اهدافها بصورة مباشرة اخذت تتستر بالاسلام وتتعاون مع منافقي المدينة من اجل تحقيق طموحاتها في القضاء على الاسلام وهذا مما حدا بنا الى اعتبار ابي عامر الراهب واتباعه ضمن حركة المنافقين لان اهدافهم كانت واحدة .

والشخصية البارزة التي اقترن اسمها بحركة النفاق في المدينة ووقفت ضد الاسلام ونبيه حتى النهاية هي شخصية عبدالله بن ابي بن سلول، كان عبدالله إبن ابي يتطلع للملك قبل ان يقدم الرسول (ص) المدينة ويقول عنه ابن هشام

(١) ابن القيم الجوزية : زاد المعاد في هدى خير العباد : بعناية الشيخ حسن محمد المسعودي، ط٣ ، المطبعة المصرية ، ١٩٧٣ ، ج٣ ، ص١٠ .

«فكان قومه قد نظموا له الخرز ليتوجوه ثم يملكوه عليهم فجاءهم الله تعالى برسول الله (ص) وهم على ذلك ، فلما انصرف قومه عنه الى الاسلام ضغن ورأى ان رسول الله (ص) قد استلبه ملكاً» (١) فكان بذلك من اشد الناقمين على الاسلام ورسوله . فلا غرابة ان يقف ضد الرسول (ص) بعد هجرته الى المدينة ويبقى على شركه مع عدد من اتباعه ويكيل للاسلام ورسوله ما استطاع .

ولقد حاول الرسول (ص) ان يؤلف قلبه الى الاسلام عن طريق الزيارة ولكن ابن ابي قابل هذه المحاولات بتجاهل فظ . ويروى لنا ابن هشام ان الرسول (ص) قد زار يوماً ابن ابي في مجلسه «فنزل فسلم ثم جلس قليلاً ، فتلا القرآن ، ودعا الى الله عز وجل وذكر بالله وحذر وبشر وانذر قال : وهو زام لايتكلم ، حتى اذا فرغ رسول الله (ص) من مقالته قال : ياهذا انه لااحسن من حديثك هذا : ان كان حقاً فاجلس في بيتك فمن جاءك له فحدثه اياه ومن لم يأتك تفتّه به ولا تأته في مجلسه بما يكره منه» (٢) .

ولما يئس ابن سلول من القيام بأي عمل مباشر وعلني لمجابهة الرسول (ص) داخل المدينة اخذ هو وبقية معارضي الرسول (ص) من الاوس والخزرج وبعض اليهود يتجاوبون عاطفياً مع مشركي مكة ، ويتمنون لهم الظفر على المسلمين في اي اشتباك يقع . فما كادت معركة بدر تقع في السنة الثانية للهجرة بين المسلمين ومشركي مكة حتى اندفعوا يبثون الاشاعات في المدينة عن هزيمة الرسول (ص)والمسلمين في هذه المعركة (٣).«فلما بعث رسول الله» (ص) عند الفتح عبدالله بن رواحة بشيراً الى اهل العالية بما فتح الله عز وجل

(١) ابن هشام : ج٢ ، ص٢١٦ .
(٢) ابن هشام : ج٢ ، ص٢١٨-٢١٩.
(٣) سالم : ابراهيم علي : النفاق والمنافقون ، القاهرة ، ١٩٦٩م ، ص١٠٠ وما بعدها .
انظر كذلك الملاح : هاشم يحيى : المنافقون في مدينة الرسول : ص٤٨٣ وما بعدها

على رسول الله (ص) وعلى المسلمين وبعث زيد بن حارثة الى اهل السافلة(١) انطلق هؤلاء المنافقون يشككون باقوال زيد بن حارثة ويقولون للمسلمين «تفرق اصحابكم تفرقاً لايجتمعون منه ابداً ، وقد قتل علية اصحابه وقتل محمد هذه ناقته نعرفها وهذا لايدري مايقول من الرعب» (٢) .

الا ان قدوم الرسول (ص) ومعه المسلمون والاسرى مقرنين بالاغلال وعددهم سبعون اسيراً من علية قريش وزعمائها بددت اوهام المنافقين التي خلقتها الاماني والاحقاد على الاسلام ورسوله وقد ذكر الواقدي «فذلت رقاب المشركين والمنافقين واليهود ولم يبق بالمدينة يهودي ولا منافق الا خضع عنقه لواقعة بدر» (٣) . عندها سارع اغلب مشركي الاوس والخزرج الى الدخول في الاسلام بعد ان ادركوا مدى قوة المسلمين وايقنوا ان المستقبل سيكون الى جانبهم . واما موقف ابن سلول فلقد وجد نفسه امام خيار صعب اما ان يبقى على شركه فيعزل نفسه عن قومه وتسقط زعامته بينهم والتي كان يعقد عليها امالاً كبيرة ، او ان يدخل فيما دخل فيه اتباعه في الاسلام ولو ظاهرياً على الاقل (٤) .

ولقد اختار اخيراً ان يدخل الاسلام منافقاً فيه فهو لم يسلم ولم يؤمن بالاسلام ابداً حتى وفاته . ولاشك ان عدداً كبيراً من مشركي الاوس والخزرج قد دخلوا في الاسلام لدوافع مشابهة الى حد كبير لدوافع ابن ابي سلول الذي اصبح لهم زعيماً فيما بعد ، ويقول ابن هشام عنه «فلما رأى قومه قد ابوا الا الاسلام دخل فيه كارهاً مصراً على نفاق وضغن (٥) . واسلام ابن

(١) ابن هشام : ج٢ ، ص٢٨٤—٢٨٥ ، الواقدي : ج١ ، ص١١٥ .
(٢) الواقدي : نفس المكان .
(٣) الواقدي : ج١ ، ص١٢١ .
(٤) الملاح : هاشم يحيى : المنافقون في مدينة الرسول ، ص٤٨٥—٤٨٧ .
(٥) ابن هشام : ج٢ ، ص٢١٦ .

سلول هذا مالبث ان تعرض لامتحان صعب عندما قرر الرسول (ص) اجلاء بني قينقاع من المدينة بسبب نكثهم العهد ولما اضطرهم الرسول (ص) الى النزول على حكمه تدخل ابن سلول قائلاً : يامحمد احسن في موالي وكانوا يومها حلفاء للخزرج (١) . والح في شفاعته لهم عند الرسول (ص) حتى قال له : هم لك (٢) خلوهم لعنهم الله ولعنه معهم (٣) .

يتضح لنا مما سبق قوة المكانة التي كان عليها ابن سلول في المدينة وبين اتباعه ، من خلال موقفه الفظ الذي وقفه من الرسول (ص) ودفاعه المستميت عن حلفائه يهود بني قينقاع .

وقد نبه القرآن الكريم الى مدى خطورة هؤلاء الذين تظاهروا بقبول الاسلام في سورتي الحشر والمنافقون ، ولما كان هؤلاء المنافقون تربطهم روابط عشائرية متينة باتباع الرسول (ص) المخلصين من الاوس والخزرج وانهم بحكم هذه الروابط وبحكم اندماجهم في الامة الاسلامية الناشئة قادرون على اثارة الانشقاقات في صفوفها . مما قد يؤدي الى انهيار البناء الذي شيـــده الرسول (ص) بعد كفاح طويل فلابد اذن والحالة هذه ان يتولى القرآن الكريم فضح هؤلاء القوم وعزلهم عن المؤمنين الصادقين وقد اطلق القرآن على هؤلاء القوم اسم «المنافقين» وراح يبين صفاتهم ويفضح اعمالهم المناوئة للاسلام .
ولا تتوفر لدينا معلومات واضحة حولهم ولا عن طبيعة تجمعاتهم واعمالهم (٤) وهكذا اصبح المسلمون يتألفون من فئتين : فئة مؤمنة مخلصة للرسول (ص)

---

(١) ابن هشام : ج٢ ، ص٤٢٨ .
(٢) ابن هشام : نفس المكان .
(٣) الواقدي : ج١ ، ص١٧٨ .
(٤) الحديثي : نزار عبد اللطيف : محاضرات في التاريخ العربي ، /ط ، مطبعة الجامعة . بغداد ١٩٧٩ ، ص٩٤ راجع حول الموضوع الملاح : هاشم يحيى ، المنافقون في مدينة الرسول.

مطيعة لاوامره وفئة منافقة تظهر الاسلام وتبطن الكفر . ولكن من هم افراد هذه الفئة ؟ لم يحاول القرآن تشخيص هؤلاء الافراد بأسمائهم وانما اكتفى ببيان صفاتهم وخصائصهم ، وترك لنباهة افراد الامة الاسلامية امر تشخيص افرادهم من اجل اتقاء خطرهم . وبذلك حافظ القرآن على وحدة الامة الاسلامية في الوقت الذي اشاع فيها روح اليقظة والحذر ضد دسائس المنافقين ووقفوا احياناً من الرسول (ص) مواقف علنية فيها كيد ودس وعليها طابع النفاق غير ان هذا كان منهم في بعض الظروف والازمات الحادة التي كانت تحدق بالنبي والمؤمنين والتي كانوا يتخذونها حجة لتلك المواقف بداعي المصلحة والمنطق والاحتياط ... ولم يكونوا على كل حال يعرفون بما هم عليه من كفر ونفاق، الا ان اساليبهم هذه لم تكن لتخفى على الرسول (ص) وكانت مواقفهم ومكائدهم هذه بعيدة المدى والاثر على ماتلهمه الآيات القرآنية والفصول المدنية حتى يبدو كانه صراع حاد يشابه إلى حد ما الصراع مابين النبي (ص) وزعماء مكة وان اختلفت الادوار والنتائج (١) .

وكانت حركة المنافقين في المدينة في بداية تكوين الدولة العربية الاسلامية تشكل خطراً كبيراً على الاسلام ورسوله ، وكان اتباعها اقوياء نسبياً بعصبياتهم التي كانت ماتزال قوية الاثر في نفوس سواد قبائلهم والتي لم تضعف الا بعد جهد وتنبيه وانذار متوال من القرآن والنبي ،رغم ذلك لم يكونوا مفضوحين فضيحة تامة . وهكذا يفسر لنا لماذا لم يتخذ الرسول (ص) في البداية موقفاً حازماً منهم والقضاء عليهم ونعتهم ، كما فعل مع اليهود على الرغم من ان وجودهم في الداخل بجانب اليهود ، وتعاونهم مع قريش والاعراب من الخارج قد يؤدي لا محالة إلى تهديد امن المدينة الا ان سياسة الرسول (ص) اقتضت للاسباب السابق عرضها ان يعامل هؤلاء المنافقين على قدم المساواة كما يعامل

المسلمين الصادقين . فقد ارسل بعد ان نزلت قوات قريش اطراف احد إلى ابن سلول يستشيره رأيه فيما يفعله لمواجهة قريش التي جاءت لتحارب المسلمين انتقاماً لهزيمة يوم بدر وكان رأي ابن سلول الا يخرج الرسول (ص) من المدينة وعليه القتال في داخلها «فقال عبدالله بن ابي ابن سلول : يا رسول الله اقم بالمدينة لا تخرج اليهم ،فوالله ما خرجنا منها إلى عدو لنا قط إلاّ اصاب منا ، ولا دخلها علينا الا اصبنا منه فدعهم يا رسول الله ، فان اقاموا بشر محبس . وان دخلوا قاتلهم الرجال في وجههم ، ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم وان رجعوا رجعوا خائبين كما جاؤا» (١) وقال رجال من اهل النية ، منهم حمزة بن عبدالمطلب وسعد بن عبادة والنعمان بن مالك بن ثعلبة ، وغيرهم من شباب الاوس والخزرج : انا نخشى يا رسول الله ان يظن عدونا انا كرهنا الخروج اليهم جبناً عن لقائهم (٢) .

وكان رأي الرسول (ص) على رأي بن سلول بعدم الخروج من المدينة «فان رأيتم ان تقيموا بالمدينة وتدعوهم حيث نزلوا ، فان اقاموا اقاموا بشر مقام ، وان هم دخلوها علينا قاتلناهم فيها» (٣) الا ان رأى اغلبية المسلمين كان الخروج لقتال العدو ولاسيما اولئك الذين لم يشهدوا بدراً (٤) .

والسؤال هنا لماذا لم يقاتل الرسول (ص) داخل المدينة ؟ طالما كان هذا رأيه ورأي عبدالله بن ابي سلول والذي اكد له حصانتها ومناعتها وقدم له خطة واضحة في كيفية الدفاع عنها . ولماذا اصر الرسول (ص) بعد ذلك

---

(١) ابن هشام : ج٣ ، ص٧ .
(٢) الواقدي : ج١ ، ص٢١٠ .
(٣) ابن هشام : ج٣ ، ص٧ .
(٤) ابن هشام : نفس المكان .

على الخروج على الرغم من عدم توافق الاراء (١) . مما قد يحدث ثغرة في صفوف جيشه فيما بعد ، وهذا ما حصل فعلا بعد ذلك من انخزال ابن سلول بثلث القوة قبل بداية المعركة ؟

والجواب على ذلك ان الرسول (ص) كان يشك في صحة نوايا ابن سلول واتباعه في امكانية الدفاع عن المدينة من جهة ، وكان إلى جانب ذلك لا يطمئن إلى موقف يهود بني النضير ويشك في مدى التزامهم بالعهد الذي بينه وبينهم من جهة ثانية ، فقد تأكد له ان يهود بني النضير قد ارسلت في تحريض قريش على غزو المدينة وقد ذكر موسى بن عقبة «وكانوا دسوا إلى قريش حين نزلوا باحد لقتال رسول الله (ص) فحرضهم على القتال ودلوهم على العورات» (٢) وهذا النص يفسر لنا لماذا اصر الرسول (ص) على الخروج من المدينة والقتال خارجها ، بالرغم من عدم تكافؤ القوتين . فهو اما ان يقاتل داخل المدينة ويعرضها للسقوط للاسباب السابقة ، واما ان يقاتل خارج المدينة ويضحي بعدد من المقاتلين ، وتبقى المدينة بعيدة عن ساحة المعركة ويضمن بذلك سلامتها وعدم سقوطها بايدي اليهود والمنافقين على الاقل .

الا ان ابن سلول قد تأثر كثيراً لعدم تبني الرسول (ص) لوجهة نظره وكان التردد مسيطراً عليه ، هل يقاتل مع الرسول (ص) ام يرجع إلى المدينة انتقاماً لتجاهل ارائه وحاول اليهود الاستفادة من هذا الموقف الذي كان عليه ابن

(1) – CF; Glubb; John: The life and times of Muhammad. London. 1970–o PP. 205–206 .

(٢) اقتبس هذا النص من مقالة كستر

Kister; M. J;
Notes on the papyrus text About Muhammad's Campaigh Against the Banu Al–Nadir (J.Archiv orie halin. Jemsalem–(1964). Vol. 32. P. 235.

سلول فقالوا له «اشرت عليه الرأي ونصحته واخبرته ان هذا رأي من مضى من ابائه ... فابى ان يقبله واطاع هؤلاء الغلمان الذين معه» .

وقد صادف هذا الكلام هوى في نفس ابن سلول فانسحب مع ثلاثمائة شخص من اتباعه وهم يشكلون انذاك ثلث جيش الرسول تقريباً ولم يثنه عن ذلك تدخل احد الانصار وتذكيره بواجباته تجاه دينه ونبيه ، واصر على موقفه محتجاً بقوله : عصاني واطاع الولدان (١) ، وما ارى يكون بينهم قتالاً (٢) . الا يجوز لنا ان نفترض ان انسحاب ابن سلول المفاجيء هذا من جيش الرسول (ص) وقبل بداية المعركة جاء نتيجة لتواطؤ وتعاون بينه وبين مشركي مكة؟ .

ان هذه الفرضية مستبعدة امام ما اورده الواقدي من ان قريشاً لم تحاول الزحف على المدينة ، بعد تقهقر المسلمين ، لانهم قالوا : «لنا الغلبة فلو انصرفنا ، فانه بلغنا ان ابن ابي انصرف بثلث الناس ، وقد تخلف ناس من الاوس والخزرج ولا تأمن ان يكروا علينا وفينا جراح وخيلنا عامتهم قد عقرت من النبل» (٣) . فلو كان ابن ابي متواطئاً مع قريش لواصلت قريش الزحف على المدينة ولما تخوفت من مقاومة ابن سلول لها في المدينة الا ان انسحاب ابن سلول بثلث القوة من جيش الرسول (ص) ليعطي لنا دليلا على مدى قوة زعامته في قومه حتى تلك الفترة .

ان مركز المنافقين وزعيمهم بعد معركة احد قد تغير ، فابن سلول لم يعد يواصل دوره كأحد زعماء الانصار في المدينة . ففي الوقت الذي كان له في قومه مكان ومقام شريف ومحمود اصبح الان لا يملك من ذلك شيئاً .

---

(١) ابن هشام : ج٣ ، ص٨ ، ابن سعد : محمد : الطبقات الكبرى ، د/ط دار صادر ، بيروت ١٣٨٨-٨٠هـ ١٩٦٨-٦٠ ، ج٢ ، ص٣١ .

(٢) الواقدي : ج١ ، ص٢١٩ .

(٣) الواقدي : ج١ ، ص٢٩٩ .

قام (ابن سلول) فقال : ايها الناس ، هذا رسول الله (ص) بين اظهركم ، اكرمكم الله واعزكم به ، فانصروه وعززوه ، اسمعوه واطيعوه ثم جلس حتى اذا صنع يوم احد ما صنع ، ورجع بالناس . قام يفعل ذلك كما كان يفعله ، فاخذ المسلمون بثيابه من نواصيه وقالوا : اجلس ، اي عدو الله لست بذلك اهل وقد صنعت ما صنعت . فخرج يتخطى رقاب الناس وهو يقول : والله لكأنما قلت بجرا ، ان قمت اشدد امره» (١) ، ولم يكون هذا الموقف ليقتصر على ابن سلول زعيم المنافقين وحده بل امتد ليشمل غيره من المنافقين، وروى ابن هشام «ان هؤلاء المنافقين كانوا يحضرون المسجد فيسمعون احاديث المسلمين ويسخرون منهم ويستهزئون بدينهم ، وبينما هم مرة يتحدثون فيما بينهم خافضي اصواتهم ، قد لصق بعضهم ببعض ، فامر بهم رسول الله(ص) فاخرجوا من المسجد اخراجاً عنيفاً» (٢) .

ولقد حاول المنافقون بعد ان وجدوا ان وضعهم قد تضعضع في المدينة بعد الاحداث الاخيرة في احد ، من التحالف مع يهود بني النضير ، عسى ان يكون هذا التحالف عاملا في تثبيت مركزهم والتغلب بعد ذلك على الرسول (ص) واصحابه الا ان الرسول (ص) قد فوت عليهم الفرصة بمحاصرة يهود بني النضير وارغامهم على الجلاء من المدينة (٣) . عز على ابن سلول أن يخرج حلفاؤه الجدد من المدينة بهذه السهولة . لذا فقد ارسل اليهم «ان لاتخرجوا من دياركم واموالكم ، واقيموا في حصونكم ، فان معي الفين من قومي وغيرهم من العرب يدخلون معكم حصنكم فيموتون عن اخرهم

---

(١) ابن هشام : ج٣ ، ص٥٧ .
(٢) ابن هشام : ج٢ ، ص١٥٠ .
(٣) انظر ابن هشام : ج٣ ، ص١٩٢ ، وانظر كذلك : الواقدي : ج١ ، ص٣٦٧ .

قبل ان يوصل اليكم» (١) (*) . الا ان ابن سلول لم يستطع ان يقوم باي عمل من شأنه ان يساعد يهود بني النضير الذين خدعوا به مما اضطرهم بالتالي الى التسليم بشروط النبي (ص) والخضوع لاوامره بالجلاء ومغادرة المدينة . وقد صور القرآن ذلك « الم تر إلى الذين نافقوا يقولون لاخوانهم الذين كفروا من اهل الكتاب : لئن اخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم احداً ابداً وان قوتلتم لننصرنكم والله يشهد انهم لكاذبون ، لئن اخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصروهم ولئن نصروهم ليولن الادبار ثم لا ينصرون» (٢) .

وفي غزوة بني المصطلق كان للنفاق دوره البارز في اثارة روح العصبية القبلية التي يحاول الاسلام ورسوله التغلب عليها ولكن ما ان وجدت لها ارض خصبة حتى ظهرت بسرعة كبيرة وكادت تؤدي إلى مشاكل داخلية بالغة الخطورة في صفوف المسلمين ، لولا معالجة الرسول (ص) لها واتخاذ الموقف المناسب منها والحيلولة دون شيوعها .

بعد ان حقق الرسول (ص) اهدافه المرجوة من غزوة بني المصطلق التي بذل فيها جهداً كبيراً . وبينما كان المسلمون يستعدون للعودة إلى المدينة حصل حادث طفيف في ذاته الا ان ابعاده واثاره كانت خطيرة جداً ، اذ تنازع اجير لعمر بن الخطاب يدعى جهجاه بن مسعود واخر لاحد الانصار يدعى سنان بن وبر الجهني عندما كانوا يسقون خيلهم من عين ماء فاقتتلا فصرخ الجهني يامعشر الانصار وصرخ جهجاه يا معشر المهاجرين (٣) فلما سمع ابن سلول هذا الصراخ — ويبدو انه كان يرغب في استعادة مكانته التي

(١) الواقدي : ج١ ، ص٣٦٨ .

(*) يبدو من هذا الرقم ان ابن سلول قد استطاع ان يستقطب جميع العناصر المعارضة للاسلام ورسوله ولا سيما تلك التي هي خارج حدود المدينة .

(٢) الحشر : ١١—١٢ .

(٣) ابن هشام : ج٣ ، ص٣٣٤ .

فقدها يوم احد . فوجدوا ان الفرصة سانحة لاستغلالها ضد الرسول (ص) وصحبه من المهاجرين . فاظهر على وجهه علائم الغضب وقال مخاطباً جماعة من قومه : اوقد فعلوها ؟ نافرونا وكاثرونا في بلادنا والله ما عدنا وجلابيب قريش هذه الا كما قال الاول : سمن كلبك ياكلك . اما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الاعز منها الاذل . ثم اقبل على من حضره من قومه فقال لهم : هذا ما فعلتم بانفسكم احللتموه بلادكم وقاسمتموه اموالكم اما والله لو امسكتم عنهم ما بايديكم لتحولوا إلى دار غيركم (١) . فسمع ذلك الغلام زيد بن ارقم احد الانصار فاخبر به الرسول (ص) (٢) عندها اراد عمر بن الخطاب (رض) قتل ابن سلول فمنعه الرسول (ص) قائلا «فكيف يا عمر اذا تحدث الناس ان محمداً يقتل اصحابه لا ، ولكن اذن بالرحيل (٣) فلا غرابة ان يكون لهذا الحديث وقع مثير في نفس رسول الله (ص) ومن حوله نظراً لما تثيره اقوال ابن سلول من مسائل في غاية الخطورة ، قد تهدد وحدة الأمة الاسلامية الناشئة وتعرضها للانهيار فعالج رسول الله (ص) هذا الموقف الحرج بالرحيل المفاجيء والمسير المتواصل حتى اذتهم الشمس . وما ان اذن لهم الرسول (ص) بالنزول ولامسوا وجه الارض حتى غلبهم النعاس فناموا ، وانما فعل ذلك رسول الله (ص) ليشغل الناس عن الحديث الذي كان بالامس (٤) ولما بلغ ابن سلول خبر معرفة الرسول (ص) بما قال وايقن من فشل محاولته هذه لاثارة الفتنة جاء إلى الرسول (ص) منكراً ما حصل وقد ايده في ذلك جماعة من قومه اذ قالوا : « يا رسول الله عسى ان يكون الغلام قد اوهم في

---

(١) ابن هشام : ج٣ ، ص٣٣٤-٣٣٥ .
(٢) ابن هشام : نفس المكان .
(٣) ابن هشام : نفس المكان .
(٤) ابن هشام : : ج٣ ، ص٣٣٦ .

حديثه ولم يحفظ ما قال الرجل حدياً على بن ابي ابن سلول ودفعاً عنه» (١) . غير ان القرآن الكريم جاء ليدحض ذلك ويؤيدما نقله الغلام إلى رسول الله(ص) من قوله ابن سلول « اذا جاءك المنافقون قالوا نشهد انك لرسول الله والله يعلم انك لرسوله ، والله يشهد ان المنافقين لكاذبون» (٢) . «وهم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا ولله خزائن السموات والارض ولكن المنافقين لا يفقهون . يقولون : لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الاعز منها الاذل ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون» (٣) .

ان نزول هذه الايات ادت إلى افتضاح امر ابن سلول واتباعه من المنافقين وسقوط مكانتهم بين قبائلهم . ولما سمع عبدالله بن عبدالله بن ابي بن سلول برغبة الرسول (ص) في قتل ابيه قال «يا رسول الله انه قد بلغني انك تريد قتل عبدالله بن ابي فيما بلغك عنه ، فان كنت لابد فاعلا فمرني به فانا احمل اليك رأسه ... قال رسول الله (ص) : بل نترفق به ونحسن صحبته مابقى معنا» (٤) . وبلغ من سقوط مكانته في قومه انه «اذا احدث الحدث كان قومه هم الذين يعاتبونه ويأخذونه ويعنفونه» (٥) . قال عندها الرسول (ص) لعمر (رض) «ياعمر ، اما والله لو قتلته يوم قلت لي : اقتله ، لارعدت له انف لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته» (٦) . ولم يكتف المنافقون وزعيمهم ابن سلول بما حصل في غزوة بني المصطلق من احداث كادت تؤدي الى فتنة عمياء بين المسلمين (المهاجرين والانصار) وما كاد المسلمون يصلون المدينة

(١) ابن هشام : نفس المكان .
(٢) المنافقين : ١–٤ .
(٣) المنافقين : ٤–٨ .
(٤) ابن هشام : ج٣ ، ص٣٣٧ .
(٥) ابن هشام : نفس المكان .
(٦) ابن هشام : نفس المكان .

حتى وقع حادث آخر لايقل في خطورته عما حدث في غزوة بني المصطلق مما اتاح المنافقين المناخ المناسب ليستغلوه ابشع استغلال وحتى ان كان ذلك يتعلق بالرسول (ص) ذلك ان الرسول (ص) كان قد اعتاد ان يصحب معه في اسفاره احدى زوجاته وكانت معه في غزوة بني المصطلق عائشة (رض) والتي افتقدت قبل العودة الى المدينة عقداً لها . فخرجت تبحث عنه . فلما رجعت وجدت ان المسلمين قد تحركوا وتركوها من دون ان يشعر بغيابها احد . فبقيت في مكانها على امل افتقادها والرجوع للبحث عنها فبينما هي على هذه الحالة ، اقبل صحابي اسمه صفوان بن معطل السلمي (١) . كان قد تخلف عن العسكر لبعض حاجته ، فصحبها حتى لحق بها العسكر ، فلما رأى المنافقون زوجة رسول الله (ص) بصحبة صفوان اخذوا يطلقون الاقاويل طعناً بطهارة ذيل ام المؤمنين عائشة (رض) ، قال ابن هشام « وكل قد دخل حديثها جميعاً . يحدث بعضهم مالم يحدث صاحبه وكل كان عنها ثقة فكلهم حدث عنها بما سمع» (٢) مما دفع الرسول (ص) الى ان يقف خطيباً ليعالج الموقف فقال « ايها الناس ، مابال رجال يؤذنني في اهلي ، ويقولون عليهم غير الحق . والله ماعلمت منهم الا خيراً ويقولون ذلك لرجل والله ماعلمت منه الا خيراً وما يدخل بيتاً من بيوتي الا وهو معي» (٣) .

ويبدو من خلال توالي الاحداث بعد ذلك ان العصبية القبلية كانت لاتزال قوية بين سكان المدينة من الاوس والخزرج جميعاً (٤) ، على الرغم من محاولات الرسول (ص) العمل جاهداً على كبح جماحها ، فلما انتهى من

---

(١) ابن هشام : ج٣ ، ص٣٤٢-٣٤٣ .
(٢) ابن هشام : نفس المكان .
(٣) ابن هشام : ج٣ ، ص٣٤٥ .
(٤) للمزيد انظر ، الملاح : هاشم يحيى : المنافقون في مدينة الرسول .

خطبته هذه قال له اسيد بن حضير احد زعماء الاوس البارزين « ان يكونوا من الاوس نكفيكهم وان يكونوا من اخواننا من الخزرج فمر بأمرك فوالله انهم لأهل ان نضرب اعناقهم... فقام سعد بن عبادة ، وكان قبل ذلك يرى رجلاً صالحاً كما تروي عائشة . فقال كذبت ، لعمر الله لاتضرب اعناقهم ، اما والله ماقلت هذه المقالة الا انك عرفت انهم من الخزرج ، ولو كانوا من قومك ماقلت هذا فقال : اسيد : كذبت لعمرالله ، ولكنك منافق تجادل عن المنافقين ... وتساور الناس حتى كاد يكون بين هذين الحيين من الاوس والخزرج شر (١) واطلت ايام سمير وبعاث من جديد تريد ان تمزق المجتمع الاسلامي الجديد بعد ان نجح الرسول (ص) في توحيده ، ولكن نزول القرآن بتبرئة عائشة (رض) حسم الموقف واعاد الثقة الى نفوس المسلمين ، بعد ان كادت هذه الفتنة العمياء تعصف بهم الى درك الجاهلية وتمزق وحدة المجتمع الاسلامي الجديد واستقراره على الرغم من خطورة الاحداث التي وقعت في غزوة بني المصطلق وحديث الافك التي اثارها المنافقون وزعيمهم ابن سلول ، الا انها لم تحقق مقاصدهم التي كانوا يهدفون الى تحقيقها ، لشق صفوف المسلمين والقضاء على دولة الاسلام في مدينة. مما دفعهم بالتالي الى محاولة الاندماج ضمن الموقف العام مع المسلمين ولا سيما بعد ان تعرضت المدينة لهجوم الاحزاب (٢) ورغم محاولتهم الاندماج ضمن الموقف العام في الدفاع عن المدينة ، لم تولد في نفوسهم الحماس الكافي للأستبسال في القتال وتحمل مشاق الحصار . فسرعان ماأخذوا يظهرون التذمر ويبحثون عن الاعذار للرجوع الى دورهم ، واندفع البعض منهم مشككاً بالرسول (ص)

---

(١) ابن هشام : ج٣ ، ص٣٤٥ .
(٢) راجع الملاح : هاشم يحيى : ص٤٩٧ .

هازئاً به وقد ذكر الواقدي : «وتكلم قوم بكلام قبيح، فقال معتب بن قشير: يعدنا محمد بكنوز كسرى وقيصر واحدنا لايأمن ان يذهب الى حاجته ، وما وعدنا الله ورسوله الا غرورا»(١) ويصور لنا القرآن مواقفهم هذه بقوله تعالى « واذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ماوعدنا الله ورسوله الا غرورا . واذ قالت طائفة منهم ياأهل يثرب لامقام لكم فارجعوا ويستأذن فريق منهم النبي ويقولون ان بيوتنا عورة ، وماهي بعورة ، ان يريدون الا فرارا» (٢) .

ويظهر ان المنافقين عند محاصرة الأحزاب بزعامة قريش للمدينة كانوا يحاولون توحيد جهودهم وتنسيق تحركاتهم من جديد ، فقد اتسمت تصرفاتهم بأشاعة الخوف في نفوس المسلمين المدافعين عن المدينة بما يطلقونه من اشاعات محاولين فيها التشكيك بقدرة المسلمين في الدفاع عن مدينتهم ورسولهم .

ولربما يرجع ذلك ايضاً الى رغبتهم بأعادة الثقة بزعيمهم ابن سلول الذي فقد مصداقيته بعد غزوة بني المصطلق وهذا ماسنراه واضحاً في غزوة تبوك وعلى الرغم من الموقف السلبي الذي وقفه المنافقون في غزوة الاحزاب ، الا انه لم يرد مايؤكد تعاونهم مع يهود بني قريضة الذين نقضوا العهد مثلاً أو تواطأهم مع قوات قريش التي كانت تحاصر المدينة . مما كان له اثر بالغ في بقاء المدينة صامدة وعدم سقوطها بايدي المهاجمين .

---

(١) الواقدي : ج٢ ، ص٤٥٩–٤٦٠ وانظر كذلك : ابن طرخان : سليمان التيمي : السيرة الصحيحة تحقيق : فون كريمر (منشور ضمن كتاب المغازي للواقدي ، ط١ ، كلكتا ، ١٨٥٦م) ص٣٦٢ – ٣٦٤ .

(٢) الاحزاب : ١٣–١٤ .

وكانت غزوة تبوك قد وضعت المنافقين وزعيمهم ابن سلول على المحك الصعب فمن المعلوم لدينا بأن الرسول (ص) قد تجهز لغزوة تبوك في السنة التاسعة للهجرة ، وامر المسلمين بالتهيؤ لغزو بلاد الروم (١) وأن ذلك في زمن عسرة من الناس وشدة الحر وجدب في البلاد ، وحين طابت الثمار والناس يحبون المقام في ثمارهم وظلالهم (٢) ففي هذه الظروف الحرجة التي تمر بها دولة المدينة دبت الحيوية في خصوم الاسلام ، فلقد اخذ ابن سلول وجماعته واتباع ابي عامر الراهب الذين بنوا لهم مسجد ضرار انتظاراً لعودته منتصراً ، وبقي يهود المدينة يعملون بجد وحماس كبيرين على بث الاشاعات في المدينة من اجل تثبيط همم الناس والحيلولة دون خروجهم للقتال مع الرسول (ص)وقد ذكر ابن هشام« ان ناساً من المنافقين يجتمعون في بيت سويلم اليهودي وكان بيته عند جاسوم يثبطون الناس عن رسول الله في غزوة تبوك.فبعث اليهم النبي (ص) طلحة بن عبيدالله في نفر من اصحابه وامره ان يحرق بيت سويلم (٣) . وقال بعض المنافقين لبعضهم لاتنفروا في الحر زهادة في الجهاد وشكاً في الحق وارجافا برسول الله (ص) (٤) وقال تعالى مخاطباً اياهم «وقالوا لاتنفروا في الحر قل نار جهنم اشد حراً لو كانوا يفقهون ، فليضحكوا قليلاً وليبكوا جزاء بما كانوا يكسبون» (٥) واخذ المنافقون يعتذرون من الرسول (ص) عن الاشتراك في هذه الغزوة متذرعين باعذار عديدة وقد ذكر الواقدي انه «جاء ناس من المنافقين يستأذنون رسول

---

(١) ابن هشام : ج٤ ، ص١٦٩
(٢) ابن هشام : نفس المكان .
(٣) ابن هشام : ج٤ ، ص١٧١ .
(٤) ابن هشام : ج٤ ، ص١٧٠ .
(٥) التوبة : ٨١–٨٢ .

الله (ص) من غير عله ، فاذن لهم» (١) وكان عدد المنافقين الذين استأذنوا رسول الله (ص) في عدم الخروج معه بضعة وثمانين رجلاً (٢) .

وبلغت اعذار البعض منهم حداً يثير السخرية . فقد ذكر ابن هشام ان الرسول (ص) قال للجد بن قيس : «ياجد هل لك العام في جلاد بني الاصفر فقال : يارسول الله : او تأذن لي ولا تفتني . فو الله لقد صرف قومي انه مامن رجل باشد عجباً بالنساء مني واني لاخشى ان رأيت نساء بني الاصفر ان لاأصبر»(٣) وقال تعالى فيه «ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني ، الا في الفتنة سقطوا وان جهنم لمحيطة بالكافرين» (٤) .

لم يحاول ابن سلول ان يعتذر في البداية كما اعتذر غيره من عموم المنافقين بل اظهر رغبة قوية في الخروج فجمع حوله من استطاع من اتباعه وحلفائه وفيهم قسم من يهود المدينة . ويؤكد ذلك ما ذكره الواقدي وكاتبه ابن سعد بقولهم «وعسكر بهم عند ثنية الوداع خارج المدينة» (٥) ، الا ان ابن سلول كان ينتظر الفرصة المناسبة ليتخلف عن الرسول (ص) هو واتباعه من المنافقين واخذ يردد ويقول «يغزو محمد بني الاصفر مع جهد الحال والحر والبلد البعيد إلى مالا قبل به . ايحسب محمد ان قتال بني الاصفر اللعب ؟؟ ونافق معه من هو على مثل رأيه . ثم قال : والله لكاني انظر إلى اصحابه غداً مقرنين في الحبال (٦) وكان هذا من وجهة نظر ابن سلول واتباعه سبباً كافياً ليتخلف عن الرسول (ص) ولم يكتفوا بذلك فقد راحو يبثون الاشاعات بين الناس

(١) الواقدي : ج٣ ، ص٩٥٥ .
(٢) الواقدي : نفس المكان ، ابن سعد : ج٢ ، ص١٦٥ .
(٣) ابن هشام : ج٤ ، ص١٧٠ .
(٤) التوبة : ٥٠ .
(٥) الواقدي : ج٣ ، ص٩٩٥ ، ابن سعد : ج٢ ، ص١٦٥ .
(٦) الواقدي : ج٣ ، ص٩٩٥-٩٩٦ .

ويفسرون مواقف الرسول (ص) على غير حقيقتها فلما استخلف الرسول (ص) علي بن ابي طالب على اهله وبيته فسر المنافقون ذلك «فقالوا : ما خلفه الا استثقالا له وتخففاً منه . فلما قال ذلك المنافقون اخذ علي بن ابي طالب سلاحه ثم خرج حتى اتى رسول الله (ص) وهو نازل بالجرف» (١) .

ثم توجه رسول الله (ص) من الجرف إلى تبوك بمن معه ، واخذ يتخلف عنه المنافقون واحداً بعد الاخر (٢) الا ان قسماً منهم قرر مواصلة المسير مع الرسول (ص) لتنفيذ المهام الموكلة اليه ، وكان لابد من تنسيق مابين جماعة ابي عامر الراهب وجماعة ابن سلول حيث عاشت غزوة تبوك اكثر الاعمال التخريبية لهم ، وظهرت لهم بعض المواقف السلبية الخطيرة تجاه الرسول(ص) فلما صرح الرسول (ص) بما انزل الله بشأن المنافقين غضب لهم اخوانهم الذين معه .

فقالوا والله لئن كان ما يقول محمد حقاً لاخواننا بعدنا ، وهم اشرافنا وخيارنا لنحن اذاً اشر من الحمر (٣) . وراحوا يرددون ما ردده ابن سلول من ان قتال بني الاصفر نهاية محمد وصحبه ، واخذوا يشككون بنبوة الرسول (ص) ويقولون اليس محمد يزعم انه نبي ، يخبركم من خبر السماء ، وهو لا يدري اين ناقته التي ظلت منه في الطريق (٤) ، ولم يكتف المنافقون بهذا ، بل راحوا يعصون الاوامر التي يصدرها الرسول (ص) لهم . فقد ذكر ابن هشام «ان الرسول (ص) اخبر المسلمين انهم سيقبلون على واد فيه ماء ، وطلب منهم الا يستسقوا منه شيئاً حتى يصله ، فلما اتاه رسول الله (ص) وقف عليه

(١) ابن هشام : ج٤ ، ص١٧٤ .
(٢) ابن هشام : ج٤ ، ص١٧٨—١٧٩ .
(٣) الواقدي : ج٣ ، ص١٠٠٣—١٠٠٤ .
(٤) ابن هشام : ج٤ ، ص١٧٩ .

فلم ير فيه شيئاً ، فقال : من سبقنا إلى هذا الماء ؟ فقيل له يا رسول فلان وفلان فقال : او لم انههم ان يستسقوا منه شيئاً حتى اتيه . ثم لعنهم رسول الله (ص) ودعا عليهم» .

ومن ابرز الاعمال الخطرة التي قام بها المنافقون ضد الرسول (ص) هي قيام نفر من ثلاثة عشر رجلا بمحاولة اغتيال الرسول (ص) (١) اثناء عودته من غزوة تبوك ، وقال تعالى يصف محاولتهم تلك «يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد اسلامهم وهموا بما لم ينالوا وما نقموا الا ان اغناهم الله ورسوله من فضله» (٢) ، فلقد استغل هؤلاء النفر فرصة مرور الرسول (ص) ليلا بطريق يطل على واد، فاندفعوا على رواحلهم متلثمين ليزحموا دابة رسول الله (ص) فيسقطوه من عليها في الوادي ، الا ان الرسول (ص) احس بما يريد القوم فامر احد الصحابة المرافقين لهم بردهم فردهم وظن المنافقين ان الرسول (ص) قد اطلع على مكرهم فحاولوا التواري بين المسلمين (٣) . واخبر الرسول (ص) الصحابة بما هم به المنافقون ، فقال له اسيد بن حضير : يا رسول الله قد اجتمع الناس هنا ونزلوا فمر كل بطن ان يقتل الرجل الذي هم بهذا فيكون الرجل في عشيرته هو والذي قتله» (٤) الا ان الرسول (ص) رفض ذلك قائلا «اني اكره ان يقول الناس ان محمد لما انفضت الحرب بينه وبين المشركين وضع يده في قتل اصحابه» (٥) .

يبدو ان ماحدث في غزوة تبوك كان بتنسيق مسبق وتعاون مابين المنافقين واتباع ابي عامر الراهب لان ماحدث من اعمال يدل على ان تحركات المنافقين

(١) الواقدي : ج٣ ، ص١٠٤٤ .
(٢) التوبة : ٧٥ .
(٣) راجع الواقدي : ج٣ ، ص١٠٤٣ .
(٤) الواقدي : ج٣ ، ص١٠٤٢ .
(٥) الواقدي : ج٣ ، ص١٠٤٤ .

كانت تسير في عدة خطوط وبشكل منسق ومتقن ، مما يدل على حسن التخطيط والتدبير الذي يقف من ورائها ، وينفي «وات» وجود اية علاقة مابين ابن سلول وجماعته بجيش الرسول الذي خرج إلى تبوك معللا ذلك بسبب سوء صحته (١) وحسن علاقته مع الرسول (ص) منذ صلح الحديبية عندما رفض الطواف لوحده دون الرسول (ص) ولكن (وات) قد ترك ثغرة كبيرة في رأيه هذا عندما تجاهل مناقشة ما أورده ابن هشام والواقدي وابن سعد من ان ابن سلول كان قد خرج على رأس جيش من اتباعه مع الرسول (ص) ثم لم يلبث ان انسحب عائداً إلى المدينة مستنكراً خروج الرسول (ص) لهذه الغزوة كما مر بنا سابقاً مما يجعل رأي وات قائماً على اساس غير صحيح .

وعند وصول الرسول (ص) إلى المدينة امر باحراق وهدم مسجد ضرار الذي بناه جماعة ابي عامر الراهب واتخذوه مقراً لتحركاتهم وقد فضح القرآن حقيقة اهدافهم قال تعالى «والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين وارصاداً لمن حارب الله ورسوله» (٢) .

وكان للقرآن اثره البارز في فضح وتعرية المنافقين وكشف اساليبهم وكانت في حوالي تسعين اية من سورة التوبة (٣) ، وسورة المنافقين وسورة براءة والحشر ... الخ .

وكان القرآن يوضح للرسول (ص) اسلوب التعامل معهم ولاسيما في الفترة الاخيرة ، وهو الا يصحب احداً منهم لقتال مقبل ، وان لا يصلي على احد منهم اذا مات (٤) . وكانت سياسة الرسول (ص) بعد غزوة تبوك متوجهة

---

(١) وات : مونتجمري : محمد في المدينة : ترجمة: شعبان بركات ، د/ط ، المكتبة العصرية ، صيدا ، د/ت ، ص٢٨٤ .
(٢) براءة : ١٠٧ .
(٣) التوبة : ٣٨-١٢٩ .
(٤) راجع التوبة : ٨٣-٨٤ .

إلى عزل المنافقين عن صفوف المؤمنين وتشديد الهجوم عليهم ، اخذوا بمرور الزمن يضعفون ويتلاشون ومما زاد في ذلك وفاة زعيمها ابن سلول بعد عودة الرسول (ص) من تبوك بفترة وجيزة ... ولم تعد حركة المنافقين بعد ذلك في المدينة حركة سياسية، وان بقي النفاق كظاهرة اجتماعية في المجتمع وبقي المنافقون منتشرين كافراد في كل زمان ومكان وهي ظاهرة يصعب القضاء عليها لانها منوطة بالنفس البشرية (١) .

مما سبق عرضه نلاحظ ان حركة المنافقين في مدينة يثرب كانت حركة قوية ذات اهداف سياسية تسعى من اجل تحقيقها ، وجاز البعض ان يطلق عليها اسم حركة المعارضة في الاسلام (٢). وعلى الرغم من كون هذه الحركة كانت في جوهرها ظاهرة مرضية في المجتمع الاسلامي وفي حدودهاالنفسية والاجتماعية الا انها في اطار الدعوة الاسلامية ، تبدو ظاهرة جيدة لانها عملت دائماً على ان يكون عموم المجتمع الاسلامي في حالة يقظة وحذر دائمين لمستجدات الاحداث من حوله (٣) .

والان يمكننا ان نفسر موقف الرسول (ص) من هذه الحركة ولماذا لم يتخذ تجاه زعيمها ابن سلول واعوانه اي موقف حاسم من شأنه تصفيتهم والقضاء عليهم .

١ ــ ان القرآن لم يأذن للرسول (ص) بمحاسبتهم والاقتصاص منهم جراء نفاقهم ، بل اكتفى بكشف اساليبهم وفضحهم امام المسلمين على الرغم من خطورة الاعمال التي قاموا بها ضد الاسلام ورسوله .

---

(١) الملاح : هاشم يحيى : ص ٤٧٨ وما بعدها .
(٢) وات : ص٢٧٤ .
(٣) راجع : خليل : عماد الدين : دراسات في السيرة ، د/ط ، دار النفائس ، بيروت ١٩٧٤م ، ص٣٦٩ .

٢ ــ ان العصبية القبلية كانت لا تزال قوية بين صفوف سكان المدينة من الاوس والخزرج وما حدث في غزوة بني المصطلق وفي مسجد المدينة كاد يؤدي إلى حرب داخلية وتعود بعاث من جديد وبالتالي ينهار البناء الذي شيده الرسول (ص) في مدينة يثرب .

٣ ــ لم يشأ الرسول (ص) محاسبتهم مع علمه بخطورة اعمالهم لكي لايتخذ ذلك ذريعة لليهود والمشركين وغيرهم للتشنيع على الاسلام ورسوله وما حصل مع ابن سلول في غزوة بني المصطلق وعند محاولة المنافقين قتل الرسول عند عودته من تبوك إلاخير دليل على ذلك .

* * *

قائمة المصادر والمراجع

١ ــ القرآن الكريم .

٢ ــ ابن سعد : محمد : الطبقات الكبرى ، د / ط ، دار صادر ، بيروت ٨٠ ــ ١٣٨٨هـ ، ٦٠ ــ ١٩٦٨م .

٣ ــ ابن طرخان : ابو المعتمر سليمان التميمي : السيرة الصحيحة : تحقيق فون كريمر (منشور ضمن كتاب المغازي للواقدي) ، ط١ كلكتا، ١٨٥٦م ص .

٤ ــ ابن قيم الجوزية : ابو عبدالله بن القيم الجوزية : زاد المعاد في هدى خير العباد : تحقيق : حسن محمد المسعودي ، ط ٣ ، المطبعة المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٣م .

٥ ــ ابن منظور : محمد بن مكرم بن علي ، وقيل رضوان بن احمد بن ابي القاسم بن حمقبة بن منظور الانصاري ، ابو الفضل : لسان العرب ، د / ط ، دار صادر ، بيروت ، ١٣٧٥هـ / ١٩٥٦م .

٦ ــ ابن هشام: ابو محمد عبدالله بن عبدالملك بن هشام بن ايوب الحميري : سيرة النبي : تحقيق : محمد محيي الدين عبدالحميد ، د/ ط ، الجزء الاول ، منشور سنة ١٣٥٦هـ ــ ١٩٣٧م .

٧ ــ البلاذري : احمد بن يحيى بن جابر : انساب الاشراف : تحقيق محمد حميدالله ، د / ط ، دار المعارف ، مصر ١٩٥١م (ج ١) .

٨ ــ الزبيدي : محمد مرتضى : تاج العروس ، دار صادر ، بيروت ١٩٦٦م .

٩ — القيرواني : ابو اسحاق ابراهيم بن علي المصري : زهرة الاداب وثمر الالباب : شرح : د. زكي مبارك،ط ٤ ، دار الجليل ، بيروت ١٩٧٢م .

١٠ — الواقدي : ابو عبدالله : محمد بن عمر بن واقد : المغازي : تحقيق مارسون جونس ، د / ط ، عالم الكتب ، بيروت ، ١٩٦٦م .

١١ — الحديثي : نزار عبداللطيف : محاضرات في التاريخ العربي ، د / ط ، مطبعة الجامعة / بغداد ، ١٩٧٩ .

١٢ — خلف‌الله : محمد : محمد والقوة المضادة ، د / ط ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٣م .

١٣ — خليل : عمادالدين : دراسات في السيرة، د / ط ، دار النفائس ، بيروت ، ١٩٧٤م .

١٤ — سالم : ابراهيم علي : النفاق والمنافقون ، القاهرة ، ١٩٦٩م .

١٥ — الملاح : أ.د هاشم يحيى : المنافقون في مدينة الرسول (ص) مجلة الدراسات الاسلامية ، العدد الخامس ، بغداد ١٣٩٣هـ /١٩٧٣م .

١٦ — المغربي : عبدالقادر : الاشتقاق والتعريب ، القاهرة ١٩٧٧م .

١٧ — وات : مونتجمري :محمد في المدينة :ترجمة: شعبان بركان د/ط المكتبة العصرية ، صيدا ، د / ت .

18– Glubb: J.B.(pasha): The Life and times of Muhammad, Hoddep and stoughton Limited London 1970 .

19– Kister: M.J: Notes on the popyrus text About Muhammad's, Campaigh Against the Banu AL–Nadir. J Apohir oriendni vol – 32 . London 1964 .

20– Serjeaut :R.B The Contitution of madina. Journal Islamic Quarterty. vol. 8. London 1964.